مسخ

لا أحب جلد الذات، أشعر بالراحة عندما أنظر إلى الإيجابيات، ولكن الهواء الفاسد في النصف الفارغ من الكأس خنقني ويكاد يعمي عيوني وعيون الناس عن بقعة الضوء التي تغالب عتمة الفساد.

قبل ثلاثين عاماً وأكثر كنا أناساً بسطاء عاديين، ومجتمعنا الصغير لا يدعي المثالية، فينا الصالح وفينا الطالح، فينا الحليم وفينا قليل الأدب، ونساؤنا نعرفهن تماماً، ونستطيع تمييز الخبيث من الطيب، وآباؤنا كانوا يعبرون عن آرائهم ومواقفهم بكل صراحة وصرامة ووضوح، ويلتزمون بقيمهم ومبادئهم ولو كان الثمن حياتهم، كانوا ينزلون الإنسان منزلته، المحسن يقولون له أحسنت، والمسيء يقولون له وبالفم المليان وأمام الناس خسئت، الرفيع رفيع بينهم بعمله وبما خبروه عنه، والوضيع يبقى وضيعاً في نفوسهم ومجالسهم ولو كان يملك نصف (الحلال) ونصف الأرض ونصف المزارع، يعرفون من يستشيرون، ويعرفون من يستأجرون ظهره كالدابة ليحقق لهم أغراضهم، الأحمق والغبي والأهوج والضعيف كانت لهم أدوار محددة في مجتمعهم لا يتعدونها أبداً، والحكيم والذكي والحليم والقوي كانوا معروفين وكل له مكانته التي تليق به ودوره الذي يليق به.

أما اليوم، وآهٍ ثم آهٍ من حالنا اليوم، فقد أصبحنا مسخاً، وجوهاً لا تعرف لها ملامح، أشباحاً تتحرك في ظلام نفوسها رغم وهج الشمس التي أحرقت رؤوسنا، زئبقية لا تؤمن بمثل أو مبادئ، وليس للقيمة في نفسها أي قيمة، تتندر على الأخلاق والالتزام بالرأي أو السلوك، ألف قناع وقناع، لكل موقف قناع، فأنت

مع أبنائك غيرك مع أصدقائك، وأنت في عملك غيرك خارج العمل، أنت هنا لست أنت الذي هناك، صقر أنت في معظم يومك أمام زوجتك وأبنائك، ولكنك سرعان ما تنقلب إلى دجاجة هطلاء أمام من هو أعلى أو أغنى منك، قديس أنت أمام جيرانك وأقربائك ولكنك عربيد مع أصدقائك، مثال أنت للالتزام أمام رجل المرور، ولكنك في آخر الليل تقطع الإشارة بمنتهى الصلافة التي لا تليق إلا بالمراهقين، رجال لا تعرف لهم رأساً ولا ذنباً ولا ديناً ولا مذهباً، ونساء لا نعرفهن أصلاً، حتى نساءنا لا نعرفهن، بناتنا لا نعرفهن ولا نعرف فيم يفكرن وماذا يردن، أخواتنا غريبات عنا وهن معنا داخل بيوتنا، فما بالك إذا رحلن عنا مع رجل آخر، زوجاتنا حسب الطلب، إن اشتقنا إليهن هشينا بأذنابنا كالكلاب، وأقعينا أمامهن لاهثين إلى لحظة حيوانية فقط، وإذا قضى كل منا وطره أدار لها ظهره، وبدأ مسلسل التخذيل والأمر والنهي، أضعنا بوصلة العلاقات بمن حولنا فضعنا وضاعوا، بل إن نساءنا أشد ضياعاً منا، فهن لا يعرفن حتى أنفسهن، ابتلاهن الله بمصيبتين: مصيبة غياب الرجل القائد المسئول الذي ينزلهن المنزلة اللائقة بهن، ومصيبة الفكر الذي قضى على ما تبقى من إرادتهن وطمس أنوثتهن وغلفها بسواد الشكوك والظنون المنحرفة.

كنا يا سادة نعيش في مجتمع نعرفه ويعرفنا، فأصبحنا نعيش اليوم في مجتمع لا نعرفه ولا يعرفنا، حتى الأرض التي نعيش فيها لم نعد نعرفها، ونشعر أيضاً أنها لم تعد تعرفنا، أنظر كيف أصبحنا في حاجة إلى أن نعلم أولادنا حب الوطن، أليست هذه مهزلة؟!

أنظر كيف أصبح المرء منا عبثياً، يعرف النظام فيخالفه وهو مطمئن مغتبط ومرتاح، بل ويشعر بسعادة لأنه فعل ذلك، أليست هذه مهزلة؟!

أنظر ماذا يفعل فينا صاحب المال بماله وصاحب الجاه بجاهه وصاحب المنصب بمنصبه، يعبثون بمصالحنا وممتلكاتنا وبعقولنا، يعيثون فينا فساداً وإفساداً، ونحن فاغري الأفواه مشدوهين مطبلين، نؤمِّن على دعائهم علينا

بالهلاك والثبور، ونتلذذ بصفعاتهم على قفانا قفا الذل والهوان، ونحن عرب أحرار أبناء عرب أحرار، أليست هذه مهزلة؟!

أنظر إلينا كيف أصبحت بصقات الشيوخ لنا شفاءً وتفالهم دواءً ورؤاهم وحياً وأحلامهم علماً، وكيف أصبحنا نطارد النجوم عبر الفضائيات، ونستقرئ الكفوف ونعلق التمائم ونرمي الودع، علَّنا نفوز بعلم من الغيب نقهر به جهلنا وفقرنا وتخلفنا بين الأمم، أليست هذه مهزلة؟!

انظر إلينا كيف ركضنا بالأمس ركضاً إلى النصابين لنضع بين يديهم قوت عيالنا، وغامرنا كالمجانين بدخول سوق لا يتجرأ على دخولها إلا عتاة الاقتصاديين ونحن لم نقرأ حتى ألف باء الاقتصاد، ولا نميز شكل المؤشر عن شكل الحرباء، ولا النقطة الأساس عن الخس والأناناس، أليست هذه مهزلة؟!

أنظر إلينا كيف نركض خلف وهم الفوز بمقابلة الفنان الفلاني، أو الفنانة الفلانية برسالة - إس إم إس - تذهب بنصف أموالنا إلى جيوب الفضائيات القائمة أساساً على سذاجتنا ومجتمعنا المراهق، وانظر إلى عرب الشمال - للّٰه در عرب الشمال - كيف أفرغوا جيوبنا البلهاء بابتكاراتهم من البرامج والأسئلة وشريط الرسائل والإهداءات التي يتهافت حولها أبناؤنا وبناتنا تهافت الفراشات إلى النار ونحن غافلون عنهم، أليست هذه مهزلة؟!

أنظر إلى شوارعنا، مدارسنا، مستشفياتنا، حدائقنا، وكافة الخدمات والمصالح التي نحن نشغلها ونعمل فيها ونحن المسئولون عنها، كيف هي؟ بل كيف نحن؟! لأنها صورة طبق الأصل عنا، صورة تنطق ببشاعتنا، وكيف أننا نرضى لأنفسنا هذا، نرضى لأنفسنا أن نعيش بين النفايات، ونسير على أسوأ الطرقات، ونكتفي بأردأ الخدمات، ونحن نعرف المسئول عن كل ذلك، فمهندس البلدية ومفتش الأمانة ورجل المرور والمعلم والموظف كلهم منا وكلنا نعرفهم، ومع ذلك راضون خانعون لا نريد تغيير واقعنا، وكل همُّه هم نفسه، والآخرون إلى جهنم، أليست هذه مهزلة؟!

ولكن، ما السبب في كل هذه المهازل؟!

إنني لا أنكر على من ضاعت هويته وفقد انتماءه فأصبح ينتمي للشرق أو للغرب، أو ينتمي للاإنتماء، ويكره هذا البلد، ولم يعد يهمه في كبيرة ولا صغيرة، وأدرك تماماً أن كل ما سبق من مهازل لم نكن نحن صانعوه، ولم نكن نحن من أراده لأنفسنا، كما أنني لا ألقي باللوم على الدولة إلا في حدود ضيقة جداً.

إن كل ما سبق يعود لسبب واحد وجيه، سبب واحد كان له أبلغ الأثر في ضياع شخصياتنا وطمس هويتنا وتبلد مشاعرنا وهمجيتنا وكفرنا بالمبادئ والقيم والأخلاق، سبب واحد سحب البساط من تحت أرجل التعددية والتنوع والتعايش والسلم، وأثار الفرقة والكراهية والإحباط والعنف، سبب واحد أراد لنا أن نكون فكراً واحداً ورأياً واحداً وصورة واحدة، سبب واحد أراد لنا أن نكون دمى متشابهة لا تفكر ولا تنتقد ولا تختار، سبب واحد جعل منا متمردين دجالين منافقين كذابين، سبب واحد جعلنا متطرفين في قراراتنا لا نحتمل الوسط ولا نقبل به، سبب واحد جعلنا مرضى بشتى الأمراض والعقد النفسية، فأصبحت شخصياتنا غير شخصياتنا ووجوهنا غير وجوهنا تلك التي كنا نعرفها!

إنها (الصحوة الإسلامية)!

إنها ما يسمى بالصحوة الإسلامية، وكأننا مجتمع كافر أتى هؤلاء لينقذوه من براثن العبودية لغير الله، وكأننا مجتمع همجي مجرم أتى هؤلاء ليهذبوا سلوكنا ويعلمونا الأخلاق ويحمونا من فتك بعضنا ببعض، وكأننا مجتمع جاهل أتى هؤلاء ليخرجوه من الظلمات إلى النور، لا أيها السادة، لقد أتى هؤلاء ليروجوا للفكر الواحد والمذهب الواحد، الفكر المتشدد الأعمى الذي ركز على المظهر قبل الجوهر، فأصبح هامش الدين بفضله متناً والمتن هامشاً، وأصبحت السنة فيه واجباً والواجب فضلاً من العبادات، لقد أتى هؤلاء لينقلونا هكذا فجأة من مجتمع طبيعي إلى مجتمع متزمت، لقد أتى هؤلاء ليفرقوا بين المرء وأخيه، والمرء وزوجه، ويبثوا الكراهية بين الناس، ويمنحوا أتباعهم صكوك الغفران، ويكفروا

ويهمشوا كل من خالفهم أو وقف أمامهم، ويعلنوها صريحة بأن الولاء للأمة وليس للوطن ولا للأرض، فكان ما كان، حتى تغلغلوا في أعماق الأعماق وأمسكوا بمفاصل البلاد، وأصبحوا هم صناع القرار، فقربوا إليهم الأتباع بحسب طول اللحية وقصر الثوب، وشهدنا بأعيننا أناساً حمقى ومغفلين ونصابين أصبحوا في موقع المسؤولية، وشهدنا بأعيننا كفاءات عالية تم إقصاؤها لأنها تخالف فكرهم وتناقض توجهاتهم ولا تتمظهر بمظاهرهم، ثم ما لبث هؤلاء أن بسطوا أجندتهم على المجتمع بأسره، وأصبحت أياديهم الأخطبوطية تغزو كل بيت، ففرقوا بين الأخوة بداعي الكشف على المحارم، وفرقوا بين الزوجين بداعي النسب، وجعلوا من المرأة كائناً شيطانياً أحاطوه بالظنون والشكوك السيئة، وسيطروا على التعليم والإعلام، فرأينا كيف أنهم أغرقوا الأسواق بكتبهم ومطوياتهم وأشرطتهم وأصموا الآذان بخطبهم ومواعظهم، ورأينا كيف أنهم كانوا حجر عثرة في سبيل تقدم المناهج وتطورها، وكيف أنهم كانوا حجر عثرة أمام الإبداع في كل مجالاته، وكيف أوهمونا أننا شعب الله المختار، وأننا الصح وغيرنا الخطأ، وأن مجتمعنا له خصوصية مقدسة لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، وأمام هذا الحضور المكثف تبنى المجتمع مكرهاً أو معجباً فكرهم ورؤاهم، وأصبح يخشاهم ويقيس كل شيء على مقاييسهم، أصبح الأب أمام أبنائه شخصية ممسوخة عنهم، والمعلم أمام طلابه صورة مشوهة منهم، والجار أمام جاره، والعامل أمام مديره، بل والخطيب أمام خطيبته، كل يدعي وصلاً بهم واقتفاء لأثرهم، ومن هنا بدأ التناقض والاختلال والنفاق، فخرجت أجيال مشوهة، وجدت الجو مشحوناً بالمحرمات والمحاذير فتمردت في صمت ونافقت وكذبت، وهي تعلم أيضاً أن الكبار ينافقون كذلك، وكانت النتيجة أن كل القيم والمبادئ والمثل تعرضت للاعتداء من الصغار والكبار ففقدت معانيها وقيمتها في نفوس النشء الذي هو مجتمعنا اليوم، وحين ارتدوا على أعقابهم بعد حادثة الحادي عشر من سبتمبر ونكصوا عن أفكارهم وآرائهم

المتشددة انكشفوا وانفضحوا على رؤوس الأشهاد، ولكن بعد أن عملوا عملهم في هذا المجتمع وأصابوه بالكره والهمجية واللامبالاة والنفاق والانفصام وتعدد الشخصية واختلال الثقة.

لقد زرعوا بيننا بذرة الكره لكل شيء سواهم، لشعوب الأرض قاطبة، بل لكل سعودي ليس على مذهبهم، لنسائنا اللاتي هن رجس من عمل الشيطان، لوطننا باعتبار أن حكامه لا يحكمون بشرع الله، وأن الانتماء الحقيقي هو للأمة الإسلامية، لأفغانستان والشيشان وجنوب الفلبين فقط، وما عداها أوطان يجب ألا نحبها لأن حكامها فسقة، وكرهنا للقوانين والأنظمة باعتبارها قوانين وضعية ليست من صنع الله، أو من صنعهم هم، وأمام هذا السيل من ثقافة الكره كرهنا حتى أنفسنا، زهدنا في وطننا، عبثنا بأنظمتنا، اختلت مثلنا، اهتزت شخصياتنا، فكانت النتيجة أننا مجتمع متناقض، بعضنا يدعي المثالية وهو أبعد ما يكون عنها، والبعض يدعي التدين وهو أبعد ما يكون عنه، والبعض يدعي الطهر وهو أنجس من ذيل الكلب، وآخر يتغنى بالكرامة وقد مسحت به الأرض، مجتمع محبط كسول منهوبة خيراته من أمام عينيه، مجتمع يرضى بالخطأ ويسكت عنه حتى وإن كان أكبر من الجبال.

نعم لقد انكشف الذين عبثوا بنا وبأنفسنا وبمجتمعنا، ولكن بعد خراب مالطة كما يقال، ولا أدري ما السبيل لنعود إلى ذلك المجتمع العادي البسيط المحب المتنوع المتطور الرقيب على نفسه الفخور بمبدعيه، لا أدري متى نحب وطننا، ولا أدري متى نتخلى عن ادعاء المثالية؟!